# ثقافتنا حيال أوربا

## تعليق على بيان جاستون زنانيري [1]

لفليكس فارس

### التعليق

إنّ في الشعوب كما في الأفراد غرائز ركّزها ناموس الرجعة في العقل الباطن فاستقرّت فيه مسيطرة على التفكير وقبول الانطباعات ، فإذا كان الفرد في تفوّقه أو انحطاطه ، وفي انجذابه أو نفوره ، يشعر من نفسه بمسيطر لا قِبَلَ له بالتمرّد على شكيمته ، فالجماعات أيضاً لها مثل هذه النوازع يحدوها الى أهداف تستقرّ مُثُلُها العُليا فيها . وكما أن الفرد إذا اقتيد مرغماً الى تطبيق حياته على غير السنن التي توافق وفطرته يضلّ السبيل، فتنقلب بواعث اللذة والسعادة فيه الى مصادر ألم وشقاء، كذلك تشقى الشعوب التي قُضيَ عليها بأن تأخذ بسُنن غريبة عنها في تفكيرها وشعورها

إنّ للشعوب التي تحدّرت من السامية واستقرّت حوافزُ القومية الشرقية فيها بكرور الأجيال فطرة خاصة تتميّز عن الفطرة الآرية التي كانت أساساً للحضارة الغربية لاتينية وجرمنية ، وتتجلى هذه الفطرة في بلدان البحر الأبيض المتوسط الآهلة بحفدة الأقوام الذين أصغوا الى أصوات موسى وعيسى وأحمد تخاطب فيهم ما ورثوه عن الرُعاة الأقدمين الذين تمرّدوا على على القوة بالحق وعلى الشرك بالتوحيد

على أنّ هذه الحوافز الكامنة في هذه الشعوب أرهقتها عوادي الزمان أجيالاً فاستكانت للجور ولكنها لم تزل الآن تراود أحلامها صروحُ مجدها الغابر وأنوار حضارتها المنطفئة

وإذا نحن استعرضنا الصفحات التي خطّتها أقلام الكتاب على ضفات البحر المتوسط منذ بدأت حوافز الشعوب السامية تنتفض من سباتها على هذه الأقلام فإننا لنقرأ فيها ما انطوت عليه روح قوميتنا وما يتجه إليه شوقنا من حضارة تتنافر كل التنافر والحضارة التي تطرقت مؤخراً الى أسرنا ومجتمعاتنا عن مبادىء الآرية سواء أكانت شرقية من الفرس أم غربية من الجرمن واللاتين

---

(1) انظر مقتطف يونيو ١٩٣٦ ص ٣٢ مقال « السامية في مؤتمر ثقافات البحر المتوسط »

على أن هذه الثقافة أو الآداب الاجتماعية الشرقية السامية قد طرأ عليها شيء من التبلبل في مظاهرها. فإن أبناء إسرائيل بعد أن شتتهم سبي بابل ثم جاء طيطوس هادماً هيكلهم سنة ٧٠ مسيحية تغلغل العدد الوفير منهم في الغرب مختلطاً بالشعوب الآرية فظهرت منهم فرق أهمها السفرديم في اسبانيا والبورتغال والاشكنازيم في روسيا والمانيا والجرمنو ولا بد على أن هذه الفرق وإن كانت بقيت محتفظة بالوسم السامي في باطنها وبتقاليدها الدينية في معابدها لم تسلم من الأثر في ثقافتها وتقيّدها بالمبادىء الغربية في نظم الحياة وأساليب التفكير. وهنالك المتنصلون الذين لم يستبقوا من السامية إلا الادعاء بها

لا ريب في أن اليهود هم، إن كانوا، أعرق الساميين نسباً، غير أن مرور تسعة عشر قرناً متوالية على من تغلغل منهم بين الشعوب الآرية على أنواعها لمما يؤثر تأثيراً عميقاً في آدابهم وأساليب تفكيرهم. على أنّ هذا التطور في الاخلاق المدنية، لا الدينية، بين مشتتي اليهود قد كان منهُ شيء من التأثير في ثقافة المتخلفين منهم في بلاد العرب، وذلك بقوّة الفعل المنعكس الذي لا بدّ للفرع من أن يتناول به أصله ولو الى حدّ محدود

وما يقال عن اليهود كسلالة ينطبق على المسيحيين تجاه مدنيات الرومان والجرمن والروس وحتى المسلمين تجاه مدنيتي الفرس والترك. أن المسلمين والمسيحيين لم يبرحوا أوطانهم الاصلية غير أن المسيحية والإسلامية انتشرتا في مدنيات من أصل آري لكلٍّ منها ثقافتها المدنية فكان من ذلك انسراب شيء من هذه الثقافات الى اتباع عيسى وأحمد في بلاد العرب

على هذا النمط وتحت هذا التأثير المثلث، تفككت او تراخت روابط المجتمع الشرقي فساد عقليته شيء من التدافع في حين أن الفطرة السامية الاصلية لم تزل كامنة فيه ولا تحتاج الا الى توجيه مسدّد في الشرق المذهبية لتتجلّى آداباً واحدة تنم على حضارة راقية تتحدر من القواعد الاساسية لليهودية والنصرانية والاسلامية، ولا يمكن لهذه الاديان السماوية أن تقف حائلاً دون هذا الاتحاد اذا ما تعرّى اتباعها مما دسته الآرية في نظم حياتهم ومناحي تفكيرهم، لانها راسية من حيث العبادة على التوحيد ومن حيث المعاملات على مكارم الاخلاق

إنّ الحضارة السامية كامنة في العقل الباطن لجميع الشعوب المنتشرة على ضفاف بحر الروم وهي وان خفيت بصورتها الإيجابية ظاهرةٌ جليًّا بصورتها السلبية لانها تمثل كل قوّتها، ففي ثفور اليهودية والنصرانية والاسلام في الشرق من مبادىء الالحاد والشرك بالله التي كانت اساس التفكير الآري والحضارات القديمة في الغرب، وفي نفورها أيضاً من التنظيم الاقتصادي ومن القواعد التي يبني الغرب حضارته عليها الآن ما يدل على استقرار مُثُل عليا في تفكير الشرق العربي السامي وفطرته للحضارة الطبيعية التي تتحدر من نظام الاسرة منذ عهد ابراهيم الى عهد محمد في الادوار الاربعة التي تجلّى الوحي فيها هادياً الى الصراط المستقيم في الحياة وفي المعاد. إن الاستاذ

زنانيري كان مأخوذاً بروعة هذه المثل العليا عندما وقف أمام ممثلي حضارة ملؤها الغطرسة يقول لهم
( لم يقد ظهرت انسانية منهمة بالمبادىء الأدبية العليا ، فقد وجب أن تشمل الانسانية كلها )
إنها لجرأة أدبية شرقية بكل بساطتها وسمو معانيها انها نبضات مؤمن تشربت روحه بما انتفض أثير الشرق من صرخات دعاته وسلوك الاقدمين ومواعظ رسله وأنبيائه
فاذا ما تغلغلت هذه العقيدة الصحيحة في نفوسنا جميعاً نحن : وارثي الحضارة السامية على الضفاف الشرقية للبحر المتوسط الذي يدعوه هريو بحر الذكاء ، فما يضيرنا ما أتى به امثال أدوار دريمون في تآليفهم المشحونة افتراء علينا ، وما يضيرنا قول لويس برتران في جلسة ختام المؤتمر نفسه الذي تكلمت السامية فيه بلسان زنانيري وترم ، اذ قال :—
( انني لا عجب أن يدعى الى هذه الوليمة الفكرية الخاصة بالبحر المتوسط ساميون وعرب وبربر فانني لا أشك في امكان الجمع بين هذه الشعوب والشعوب اللاتينية في فكرة واحدة للمثل العليا )
أجل ، ما يضيرنا هذا القول ونحن قادرون أن نجيب المسيو برتران بأن المثل العليا التي يباهي بها انما هي بذرات من أنوار غمرت هذه الشعوب التي يتهكم عليها فأنارت بها جدوده حين كانوا يضربون في حنادس الظلمات ويعبدون أربعة آلاف إله في أساطيرهم الرومانية ؟ بل نحن قادرون أن نسأله عن شكل حضارة قومه قبل الوحي وما كانت تقوم هذه الحضارة عليه لو لم يستنر الشاطىء الغربي للبحر المتوسط بما أشع على شواطئه الشرقية من أنوار . . . .
اذا كان المسيو برتران ، لاعتقاده بتفوق قومه علينا علماً وثقافة يعتقد بعدم إمكان الجمع بيننا وبينهم في فكرة واحدة للمثل العليا ، فانا نحن أيضاً نشك في إمكان هذا الجمع بعد أن تضاءلت في الغرب الانوار التي ارسلها الشرق على آفاقه وبعد ان دفعت به سكرته المادية الى محو كل مبدأ لا يؤله الذهب ولا يقيم من اصنام الشهوات إلهاً . . .
إن السامية انارت الغرب طوال الاجيال غير ان إشعاعها لم ينفذ الا الى أرواح العباقرة في شعوبه ، وهذه الآثار الادبية الرائعة التي تهز النفوس والتي يباهي ابناء الجرمن واللاتين بها لا تفيض على المشاعر بفكرة الا ويرى الشرقي وراءها آية من توراته أو انجيله او قرآنه .
غير أن الغرب لم يعمل بهذه الروح في بناء حضارته بل كان يرجع ابداً الى فطرته القديمة في تنظيم سلطته ومجتمعاته فنشأت فيه هذه المشكلات الاجتماعية التي نرى من معضلاتها تهدم بناء الاسرة وفناء النسل
استغرق الغرب في حضارته الآلية فتمردت فكرته على الايمان وهذا نيتشه الكاتب الالماني الذي اقام اوروبا وأقعدها والذي تأخذ النازية بمباديه اليوم وهي تتسرب الى كل الشعوب التي تمت الى الآرية بنسب ، هذا نيتشه يقول في كتابه زردشت
( لقد كان هذا الاله الشرقي قاسياً في اوائل حياته ، لقد كان متعطشاً الى الانتقام ، فأعد جحيماً

لتسلية أصحابه ، ولكنه انقلب الى الضعف في أيام شيخوخته فصبح شيخاً رحيماً . لقد أصبح جداً هذا الاله بعد ان كان أباً بل هو الآن أشبه بجدة هرمة متداعية الى الفناء . ويقول أيضاً :

« ان هذا الاله كان مضطرب العقل مغماً بالتناقض والغموض ، أبعدوا عن هذا الاله غيورنا الا يكون لنا مثل هذا الهاً . ان القيم الانسانية تشعر بالمخاض ، لقد مات الله وها نحن نتمتع بارادتنا الحرة . ليحيى الانسان المتفوق »

اذا كانت المثل العليا التي يتبجح بها المسيو برزان هي هذه ، فلينعم بها هو ومن يحتذها من قومه ، فان الروح السامية لن تنفك تتجه في جهادها الاكبر نحو هذا الاله الذي يدعوه ( شرقياً ) ليحقره بتحقيرنا وهو الاله الواحد الاحد رب الناس اجمعين

غير اننا نحمد الله على انه لم يزل في الغرب جبابرة يعتقدون بسمو ثقافتنا الروحية ، واذا كان برزان قد قال ما قال في المؤتمر ، فان المسيو جبريل بواسي الذي ترأس احدى جلساته قد هتف قائلاً :

( يجب أن لا تدرس مدنية البحر المتوسط كما تدرس مدنية ميتة بل ككائن حي مليء بالقوى الدافعة والإشعاع )

وما هذه الشهادة الأولى بما في الشرق العربي من حوافز ومؤهلات ، ويعلم الادباء منا ما يعتقده دهاقنة الغرب في ثقافتنا ، غير انني ارى مما يتوافق والبحث الذي اتناوله عن الحالة الراهنة ايراد كلمات لكاتب الماني وشاعر اسباني نظرا الى الانسانية بعين مجردة عن هوى الاجناس فقال الاول وهو الاستاذ كيفار : (تمشي النهضة الادبية في الاقطار العربية الثلاثة مصر والشام والعراق ، بخطى متساوية متوازنة كأنها قلب خفاق يهتز بعاطفة واحدة ويتنفس عن شعور واحد) . وقال الثاني وهو الشاعر الاسباني فرنسيسكو فيلا سبازا في مقدمة ترجمته لقصيدة ( على بساط الريح ) للشاعر العربي الخالد المغفور له فوزي المعلوف

( ما هي الآثار الحديثة التي خلقتها ثقافة الغرب الروحية ؟ ! لقد حجب الغرب انوار المسيحية الأولى ، وبدل بالادب المستحدث ما في شعر المسيحية السامي من مؤاساة وحول فلسفتها الى أحاج ومعميات . ان جميع مكتشفات الغرب العجيبة ليست جديرة بكفكفة دمعة واحدة ولا بخلق ابتسامة ، وليس أجدر من امم البحر المتوسط المحتفظة بالثقافة الشرقية والقائمة على اذاعتها بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤوم الى هوة التوحش الاقتصادي . اذن فنسيم البحر المتوسط العليل هو القادر على تبريد هذه النشوة نشوة الحر والذهب ، وحسب الغرب المسوس ما يتخبط فيه من نوب يستطلع بها الى أحط ملاذ المادة ضارباً عرض الحائط بأجمل ما في الحياة من أماني وأحلام

أما وقد وقف بين غلاة الثقافة الغربية من رفع منار السامية الشرقية عالياً ، أما وقد كان هذا السعي الجاسور ما أهاب بالمؤتمر الى ان يسجل في جلسته الاخيرة دعوة المفكرين الى الاهتمام بالمدنيتين السامية والعربية وضمهما الى الدروسات اللاتينية . فاننا نرى الشرق العربي بعد هذا يواجه أمراً واقعاً لا بد له من اقتحامه ، وهو ان يثبت امام ممثلي حضارة الشواطئ الغربية للبحر المتوسط أن على الشواطئ الشرقية المقابلة له ثقافة تشع منها اليوم الانوار التي اهتدى بها الخافقان . وكيف يتسنى لنا ، نحن ابناء هذه البلاد ان نثبت بالفعل ما قاله عنا كلود فارير في مؤتمر مونا كو اذ هتف قائلاً : —

لايجب ان نبحث عن الوارثين الحقيقيين لمدنية البحر المتوسط لأن كل الذين يقطنون هذه الشواطئ والمتازة بجمالها وطيب مناخها متضامنون في هذه المدنية التي طبعتهم بطابعها الخاص ووحدت بينهم

أجل كيف يتسنى لنا القيام بهذا الواجب الذي يمليه علينا رماد القبور وتطالبنا به اسرة أطفالنا بل وأسرة اطفال الدنيا بأسرها . إنّ عدداً وفيراً من عباقرة الأمم الملهمين يولون وجوههم شطر بلاد الانبياء ومنشإ الفلاسفة الاحرار الاقدمين كأنهم يتوقعون منها انبثاق نور هداية للشعوب المتدهورة في مهاوي المادية التي تنكر الانسانية بجحودها إله الانسانية

هل نحن ، يا ترى ، ذلك الجنين الذي تحوم روح الانسانية حوله لتحلّ فيه فتقيمهُ جسداً جديداً للحياة الجديدة . إنّ هذا التقمص المنتظر لن يتم بقيام أمة على أنقاض أمم بل بهبوب فكرة حية من مثاوي الوحي القديم تسود المدنيات الاوربية المتداعية بما أنزل على الشرق من وحي السماء

إنّ المدنية المنتظرة انما تقوم على إحياء الأسرة ورفعها على عرش قدسيتها من مهاوي الاغراق في الاستبداد بالمرأة ومن مزالق اطلاقها لمتطرف المشين ، انها لمدنية تقضي على تناكر المذاهب والجنسيات لإسعاد الانسان بالتعاون في كل أمة وفي كل بلاد ، انها لمدنية تحتفظ بالعلم الذي تبقى الغرب على ناصيته في جهاده الفكري لاخضاعه للنظم الاجتماعية الصحيحة المستلهمة من الشرق لاصلاح الحياة . اذ لا خير في علم يبتدع الوسائل لاستغلال الطبيعة والتحكم بقواها الكامنة اذا صار هذا العلم ثقافة لا تميّز بين الجماد والاحياء فتدفع بهم جميعاً الى معصرة حضارة خلولة تستخرج الذهب من العناصر كما تستخرجهُ من دماء المستضعفين في الارض

إنّ علماً لا تتحكم فيه الثقافة الراقية الروحية لقوة جامحة مطلقة هوجاء تأتي الانسان بما يداوي به علله ولكنها تأتيه بالزمن نفسه بما يقتله ويبيد جنسه . وليس أشد فتكاً بالنوع البشري من اشراق علمه في دماغه وموت إيمانه في قلبه

إنّ الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط لم تزل مستودع تلك الثقافة الروحية ، ولكننا نلمسها مشقلة من نعاس الاجيال نائمة بين خرائب هياكلها وآثار مدنيتها العافية

ومن جهينة هذه الثقافة عباقرة الغرب وقد ملأت مؤلفات شكسبير وهوجو ودانتي وأقامت في الغرب كل ما هو جميل ونبيل حتى جاءت الحضارة الآلية تكافح هذا النبل وتقضي على هذا الجمال

وهذه الثقافة نفسها هي المنبعة لأكبر كتابنا وخطبائنا وشعرائنا ، هي النسمة الخالدة التي أحيت كلمات مصطفى كامل وسعد وشوقي وحافظ ومطران وطه حسين وهيكل والمازني والمنفلوطي والرافعي والعقاد ونعيمة ومي وجبران والريحاني والفلاط وعجمي ومردم وأسطفان والزركلي وبشارة الخوري والياس ابو شبكة والزهاوي والرصافي والمكرزل وأبي ماضي والكاظمي و... و... و...

من هذه السلسلة الطويلة التي تماسكت حلقاتها فوق التراب وتحت التراب على ارض الشرق وعلى كل ارض نثرت هذه الحلقات المتماسكات عليها

ولكن ، أين من هذه الثقافة هؤلاء الأقوام المحيطون بالبحر المتوسط وشرقيه ما في الشرق العربي من أقوام . إن بين هذه الشعوب والناطقين منها لمجالاً بعيداً ، فإن روح الشرق الهابة فوق الاهرام والأرز وقمة بعلبك وهيا كل أورشليم ومآذن دمشق وقباب بغداد قد قبضت على مشاعر العباقرة منا ، ولكنها بقيت تنزلق انزلاقاً على هذه الكتل المبددة الملتوية كالقاصب وقد ساورتها هوج الرياح من كل جانب

إن الثقافة العربية السامية الشرقية التي تتجلى في أقوال عباقرتنا مشبعة بروح الصيانة والتساهل والعطف والاخاء من هذه الشعوب المقلدة التي تقفو حوافزها فيها

إن هذه النيالق الفكرية المستنيرة للدهر على ارض الوحي القديم قادة يتجهون الى مثل عليا واحدة ولكنهم مختلفون في مناحيهم الفكرية متفرقون على أساليب تضعف تأثيرهم ما بددته القرون من شعوب ، ويلوح لنا أن الأوان قد آن لتضافر الهيئات الادبية لعقد مؤتمرات سنوية تجمع بين مفكري الشرق العربي وتفتح المجال للمناقشة في الأسس التي يجب أن ترتفع عليها حضارتنا في تجددها

إن كلاً من سلالات العالم تنتفض الآن لتنشط ما يمكن في قوميتها من حوافز وقد اتفقت جلها أن لم نقل كلها على مناوءة السامية وإنزالها منزلة منحطة عن مراتب الشعوب الآرية ، فلأقوام المنتشرة في جزيرة العرب وفلسطين وسوريا ولبنان ووادي الفرات ووادي النيل والشواطيء الشرقية للبحر المتوسط وشواطيء البحر الاحمر تدمغها الحضارة الغربية وحضارة العالم الجديد بطابع التوكل والخمول ، وما ينسى المفكرون في الشرق تلك الحملات التي وجهت الى هذه الشعوب في اوربا وخاصة في العالم الجديد حيث وقف أدباؤنا وقفتهم التاريخية نهاجموا المعتدين على كرامتنا وردوا كيد المفترين

إن السامية في الشرق العربي لا تقف تجاه السلالات المنكمشة على ذاتها في العالم كتلة تبني وحدتها على المميزات الجسمانية مفتشة على الفروق في الانساب ، بل هي تبنيها على المميزات الروحية

في حوتقز أصبحت سحرية تشكل سلالة قديمة قطنت هذه البلاد التي خشع عظماء العالم تحت سمائها الصافية وفوق أرضها المخضبة بدماء الشهداء من اجل الاخاء الانساني والحق المطلق

لغة الفتح الجرمن واللاتين وسواهما من السلالات بالشرق ، فاننا نحن نباهي بالفكرة الحية السماوية التي أقامت من شتاتنا أسرة واحدة ، كلمة التعارف بينها اسم ربها مصدرها ومعادها

لا ريب في أن هذه الأسرة الروحية قد نزلت بها عوادي الزمان حقبة من الدهر يستطيلها الجاهلون ، ولكن العارفين يعلمون أنها أقصر من إن تقضي على مبادىء حضارة بقيت أربعين قرناً محوراً لتيارات الافكار في العالم

إن حضارة الغرب وعهدها بالرقي منذ بضعة مئات من السنين قبضت على تراثنا من العلوم الوضعية فسارت بها شوطاً بعيداً حتى حسبت أنها هتكت ستر المادة بادراكها سر الفناء المتوالي ولكنها عند ما توغلت ما وراء الحد الاخير رأت الجوهر الفرد الذي افترضته علة واجبة الوجود يتحول الى إشعاع ويتوارى عن العيان ، فأدرك العلماء الدهريون انهم يحدقون بمجاهرهم الى مادة لا كيان لها بذاتها وقد بدأ هؤلاء العلماء يفترضون وجود العالم الخفي كما كانوا يفترضون وجود الجوهر الفرد المادي من قبل ولن يطول الزمان حتى تعود حضارة المادة أدراجها نحو المبادىء السامية التي تواجه معضلات المجتمع بعين تبصر مظاهر المادة وبعين اخرى من الالهام تواجه ابداً موضع الاسرار ومنبع الانوار

إن الغرب لما يزل يدرس الانسانية كأنها حلقات جسوم تتوارث الموت لا الحياة فلا يستغرب إن تأتي الحلول التي يأخذ بها في مشكلات اموره معضلات جديدة تستدعي بدورها حلولاً اخرى

أفليس من العبث أن يعمد الانسان الى اصلاح المادة بالمادة نفسها في حين أن مستقر القوى المصلحة انما هو في النفوس . وما غيّر الله من قوم ما لم يغيّروا ما في نفوسهم

ليس في هذه العجالة متسع للالمام بأطراف الموضوع ، وقد أتلنا القلم قسطنا منه في غير هذا المقام ، فنكتفي الآن بتكرار الدعوة الى عقد المؤتمر الذي نرى الحوادث نفسها تدعو الى عقده وهل أجدر من مصر ميداناً له ومن احق من عرشها السامي بانشائه وعلى هذا العرش عمل باعث اتحاد البلاد العربية الآمر بانشاء المجمع العلمي والمؤتمر الموسيقي وفرقة التمثيل الحكومية ، وما اللغة التي يعنى المجمع بها وما الموسيقى والتمثيل الا بعض عناصر الثقافة او الآداب القومية التي تبنى عليها أمجاد الامم

إننا ونحن نسجل للاستاذ زنانيري خطوته الأولى تجاه أمم الغرب لاثبات ما لثقافتنا من معجزات نقترح باسم السامية التي أصبحت العربية قلبها الخفاق ولسانها المبين ، إقامة دار للمنبر العربي على ضفاف النيل منارة عالية تشع بكل ما في الاقطار العربية من أنوار